

الفصل الثالث الحياة الجاهلية

١

الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالي ، وهم عتقائوها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفسهم عنها لكثرة جرائمهم وجنایاتهم ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم وجامعهم ، وقد يستجير الخلع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبناؤها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمشون على وجوههم في الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم وأدبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرّاً والسليتك بن السلكة والشنفرى . على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد ، وكان كريماً فياضاً ، وأثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عبس ومعوذيا ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغانمه (١) .

وهذا الخلع إنما كان يحدث في حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عرّاه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هي كلمة المروءة التي تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغضب عن العوراء .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٧٨/٣ وما بعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإحمال فكان الغنى بينهم يَفْضَلُ على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله في سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سُننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً على الكُثبان والجبال ، ليتهدى إليهم التائهون والضالون في الفيافي ، فإذا وفدوا عليهم آمنوهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور في شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص (١) :

ومستنبح يخشى القواء ودونه من الليل بابا ظلمة وسُتورها^(٢)
 رفعتُ له نارى فلما اهتدى بها زَجَرْتُ كلابي أن يَهْرَّ عَقورُها^(٣)
 فلا تسأليني وأسألني عن خليقتي إذا رَدَّ عافى القِدر من يستعيرها^(٤)
 تَرَى أن قِدرى لا تزال كأنها لذى الفَرَوَة المَقْرور أم يزورها^(٥)
 مبرزة لا يُجعلُ السُّترُ دونها إذا أخدم النيرانُ لاح بشيرها^(٦)
 إذا السَّمولُ راحت ثم لم تَفدِ لحمها بألبانها ذاق السَّمان عَغيرها^(٧)

واشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون^(٨) ، مثل حاتم الطائي الذي ضُربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره في كثير من شعره كقوله^(٩) :

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كلابُهُ وشقَّ على الضيف الغريب عَقورُها

- (١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ١٣٦/٥ .
 (٢) مستنبح : من ينبع حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : الفلاة . . .
 (٣) يهر : ينبع نبعاً خفيفاً ، العقور : العاص .
 (٤) عافى القدر : مستعيرها .
 (٥) ذو الفروة : السائل ، المقرور : الذي اشتد به البرد .
 (٦) بشيرها هنا : ضوها .
 (٧) الشول : الإبل العظيمة التي لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيغان .
 (٨) انظر في أجواد الجاهلية كتاب المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .
 (٩) الحيوان ١/٣٨٣ .

فإني جبانُ الكلبِ بيتي موطاً جوادٌ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرها

وكانوا لا يقدرّون شيئاً كما يقدرّون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظّمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب . وبلغ من اعتدادهم بهذه الحصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادّة لصاحبته سمية (١) :

أَسْمَى وَيَحْكُ - هَلْ سَمِعْتَ بِغَدْرَةٍ رُفِعَ اللِّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعٍ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة المهلوب وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأفنة وإباء الضمّ ، وكيف يقبلون الضيم ، وهم أهل حرب وجلاّد ، يقول المتلمّس (٢) :

إِنَّ الْهَوَانَ حِمَارُ الْأَهْلِ يَعْرِفُهُ وَالْحَرُّ يَنْكُرُهُ وَالرَّسَلَةَ الْأَجْدُ (٣)
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانَ: عَيْرُ الْأَهْلِ وَالْوَيْدُ (٤)
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَعْقُولٌ بَرْمَتُهُ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَبْكِي لَهُ أَحَدٌ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضمّ ، فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شيء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه في بلاطه ، وكان نازلاً معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلاً بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم مترلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التي لا تنى ولا تفر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الحصلة جميعاً في أقوى صورها ، مضيفين إليها

(٢) الرسالة: الناقة الذلول، الأجد: الوثيقة الخلق.

(٤) العر : الحمار .

(١) المفضليات ص ٤٥ .

(٢) حماسة البحترى ص ٢٠ .

حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حُكَّام تجاوزت ألمعتهم حدود قبائلهم^(١)، مثل عامر بن الظَّرب وأكثم بن صيفي، وكانت تفرع إليهم القبائل في خلافاتها الكبيرة التي يصعب حلها في دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرفان.

على أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والتمار، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كثورها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العبادي الحيري، وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم. وأكثر من كان يتجربها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم في بعض الأحياء أو في بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتهم الشباب ليشرَبوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبهم. وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنَّى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البراء بن قيس الكناني أحد أدلاء القوافل في الجاهلية، إذ كان سكيراً فاسقاً، فخلعه قومه وتبرأوا منه^(٢). ويقول طرفة في معلقته:

وما زال تشرباني الخمورَ ولذتي وبَيْعِي وإنماني طريقي ومُتَلِّدِي^(٣)
إلى أن تحامتنى العشيرةُ كلها وأفرَدتْ إفرادَ البعير المعبد^(٤)
ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتي وجدَّك لم أحفل متى قام عُودِي^(٥)
فمنهن سَبَقُ العاذلاتِ بشربةٍ كُمَيْتٌ متى ما تُعَلَّ بالماءِ تُزِيدِ^(٦)

(٥) عود: جمع عائد أو عائدة، ويقصد من يعودونه عند الوفاة ويبيكونه. والجد: الحظ والبخت.

(٦) الكيت: الخمر، يقول إنه يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل.

(١) انظر في حكام العرب كتاب المخبر ص ١٣٢.

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ٧٥/١٩.

(٣) الظريف: المال الحديث، والتلد: المال القديم.

(٤) تحامتنى: تجنبتني، المبد: الأجر.

وكررى إذا نادى المضاف محبباً كسبيد الغضا نبهته المتورد^(١)
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب^(٢) ببهكنة تحت الخبء المعمد^(٣)

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء . على أن هذه الفتوة التى يصورها طرفه كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنزة ، بل حتى من صعايلكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عاداتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً ، يجرىون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت ، وعلى أصحابها غرم إن خابت ، وأكبرها نصيباً يسمى المعدلى . أما الأربعة الباقية فلاحظ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : (يسأونك عن الخمر والميسر قل فىهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) وقوله جل وعز : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد وصف الخمر بأنها (رجس من عمل الشيطان) . ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها^(٤) وقد جعل لها

(٢) الدجن : النيم ، الهكنة : المرأة الجميلة ،
المعد : المرفوع بالعقاد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود
وابن ماجة والنسائى والبخارى ، وراجع دائرة
المعارف الإسلامية فى مادة خمر ..

(١) المضاف : الخائف المدعور ، والمحبب :
الفرس الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناه قليل ،
والسبيد : الذئب ، والغضا : شجر ، نبهته :
هيجته ، المتورد : الجرىء . يقول : إذا
استغاث به خائف عطف فرساً يصرع فى عدوه
إسراع ذئب الغضا الجرىء حين تهيجه .

الرسول صلى الله عليه وسلم حداً : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط في شربها رفع حداها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفي أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب في الوفود عليه بالمدينة ومدىحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « يهاك عن خيال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقتار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته^(١) . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموي المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالاً إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد ، وأقام لهم نظاماً سماوياً رفيعاً لمجتمعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها في هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحُرّات ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخذان ، وقينات يضربن على المزهرة وغيره في حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريقات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن في منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنزة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردت إليه اعتباره .

وكانت الحرة تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخيباء ، إلا إذ كانت من الشريقات المخدمات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان هن منزلة سامية ، فكن يتخزن أزواجهن ، ويتركهن إذا لم يحسنوا معاملتهن^(٢) . وبلغ من منزلة بعض شريقاتهن أمن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حرته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكية إلى السليبيك بن السلعة حرته حين وقع أسيراً في يد عشيرتها من بني عوار^(٣) . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شيء

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣٦/٩ . والأمال ١٠٦/٢ والمجرب ص ٣٩٨ .
 (٢) انظر الأغاني ١٣/١٠ وما بعدها (٣) الأغاني (طبعة السبي) ٣٧/١٨ .

يثيرهم كَسَبِي نَسَأْمِهِمْ وَهُمْ بَعِيدٌ عَنِ الْحَيِّ ، فَكَانُوا يَرْكَبُونَ وَرَاءَهُمْ كُلَّ وَعْرٍ حَتَّى يَلْحَقُوا بِهِمْ وَيَنْقُذُوهُمْ وَيَغْسِلُوا عَارَ سَبِيهِمْ عَنْهُمْ ، وَهُوَ عَارٌ عِنْدَهُمْ لَيْسَ فَوْقَهُ عَارٌ .
وَكَانُوا يَصْحَبُونَهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرْبِ ، وَكَانَ يَشُدُّونَ مِنْ عِزَّتِهِمْ بِمَا يَنْشُدُّونَ مِنْ
أَنْشَادٍ حَمَاسِيَّةٍ ، حَتَّى إِذَا قُتِلَ فَارِسٌ نَدَبْنَهُ نَدْبًا حَارًّا حَاضَاتٍ عَلَى الْإِخْذِ بِثَأْرِهِ
وَالِانْتِقَامِ مِنْ قَتْلِهِ . وَتَلْمَعُ فِي هَذَا الْجَانِبِ أَسْمَاءُ كَثِيرَاتٍ عَلَى رَأْسِنَ الْخِنَسَاءِ وَمِثَالِهَا
فِي أُخْوِيهَا صَخْرٌ وَمَعَاوِيَةُ مَشْهُورَةٌ . وَكَانَ يَسْتَنْشِطُنْ غَضَبًا إِذَا رَضِيَ الْعَشِيرَةَ بِأَخْذِ
الِدِيَّةِ ، حَقْنًا لِلدَّمَاءِ ، عَلَى نَحْوِ مَا تَصَوَّرَ ذَلِكَ كَبْشَةُ أُخْتِ عَمْرٍو بْنِ مَعَدٍ يَكْرِبُ ،
وَقَدْ قُتِلَ أَخُهَا (١) :

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَشَارُوا وَاتَّذَرْتُمْ فَمَشُوا بِأَذَانِ النَّعَامِ الْمُسْلِمِ (٢)
فَهِيَ تَرَى أَنَّ عَشِيرَتَهَا إِنْ قَبِلَتِ الدِّيَّةَ فِي أُخْيِهَا أَعْطَتْ عَنْ يَدِهَا صَاغِرَةً
صَغَارَ الْأَسْرَى الَّذِينَ تُجَدِّعُ آذَانَهُمْ ، بَلْ صَغَارَ النَّعَامِ الْمُسْلِمِ الْمَقْطُوعَةِ آذَانَهُ .
وَتَقُولُ أُمُّ عَمْرٍو بِنْتُ وَقْدَانَ فِي أَخِيهَا قُتِلَ وَقَدْ فَكَّرَتْ عَشِيرَتَهَا فِي قَبُولِ دِيَّتِهِ (٣) :

إِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَطْلُبُوا بِأَخْيِكُمْ فَذَرُوا السَّلَاحَ وَوَحِّشُوا بِالْأَبْرِقِ
وَخَذُوا الْمَكَاحِلَ وَالْمَجَاسِدَ وَالْبِسَاوَةَ نُقِبَ النِّسَاءُ فَبِئْسَ رَهْطُ الْمُرْهَقِ (٤)
فَهُمْ إِنْ لَمْ يَثَارُوا لِأُخْيِهَا حَقًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَلْقُوا السَّلَاحَ وَيَمْضُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى
مَكَانٍ بَعِيدٍ بِالْأَبْرِقِ ، فَيَتَزَيَّوْنَ بِزَى النِّسَاءِ ، وَيَتَعَطَّرُوا وَيَتَزَيَّنُوا بِزِينَتِهِمْ . وَكَانُوا
يَفْرُونَ مِنَ الْحَرْبِ حِينَ لَا يَكُونُ مِنَ الْفِرَارِ بَدٌّ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ النِّسَاءُ وَيُرَوِّهِنَّ
فَارَاتٍ وَقَدْ حَسَرْنَ عَنْ وُجُوهِهِنَّ ، حِينَئِذٍ يَثْبُتُونَ فِي الْمَعْرَكَةِ وَيَنَاضِلُونَ حَتَّى الذَّمَّاءَ
الْأَخِيرَ (٥) :

وَكَانَ جَمَالُهُنَّ يَثِيرُهُمْ ، وَيَنْطَلِقُ أَلْسِنَتُهُمْ بِوَصْفِهِ وَوَصْفِ مَا كُنَّ يَتَزَيَّنُّ بِهِ مِنْ

(١) المرزوق ٢١٨/١ وقارن الأصمعيات

(٢) المرزوق ١٥٤٦/٣

ص ١٥٧ .

(٤) المجاهد : جمع مجسد وهو الثوب المشج

(٢) اتذرتهم : أخذت الدية ، وأذان النعام

صيفة ، والنقب : جمع نقبة ، وهي إزار للمرأة .

(٥) المرزوق ١٧٧/١

مصلة خلفة .

طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتُضحى فتيتُ المسك فوق فراشها نوومُ الضحى لم تنتطِقْ عن تفضّل
ويقول المنخّل اليشكري في فثاته^(١) :

الكاعب الحَسَناء تَرَّ فُلُّ في الدَّمَقَسِ وفي الحَرِيرِ

ولم يفتقروا عند جمالها الجسدى ، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تنحلى به من شيم وخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشَّنَمَرَى في زوجته أميمة^(٢) :

لقد أعجبتنى لاسقوفا قناعُها إذا ما مشت ولا بذات تلقت
تبيت ببعيد النوم تهدي غبوقها لجاراتها إذا الهدية قلت^(٣)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالمذمة حلت
كان لها في الأرض نسيباً تقصه على أمها وإن تكلمك تبت^(٤)
أميمة لا يخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت^(٥)
إذا هو أمسى أب قرّة عينه مآب السعيد لم يسئل أين ظلت^(٦)

فصاحبه وقور خجول ، لا يسقط قناعها في أثناء سيرها ولا تلتفت حولها . وهي كريمة مؤثرة تؤثر جارتها في الجذب بغبوق اللبن ، وقد حصنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها ، وهي شديدة الحياء . ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض في مسيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العَطِر عنها في العشيرة لبعلاً زوجها زهواً وخيلاء : إنها مثال العفة والجلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

(١) الأصمعيات ص ٥٥ .
(٢) المفصليات رقم ٢٠ .
(٣) الغبوق : اللبن الذي يشرب في العشي .
(٤) النسي : الشيء المنسى أو المفقود ،
تقصه : تتعقب أثره ، أمها بفتح الهمزة :
قصدها . تبت : أوجزت .
(٥) النثا : الحديث عن الشخص ، الحليل :
الزوج .
(٦) أب : رجع .

الطويلة عاد قرير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .
وتدور في كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هيام بعضهم بهن ،
وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض
المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس في
مطلع معلقته :

قفا نَبِكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسِقْطِ اللَّوَى بين الدُّخولِ فحَوَمَلِ

فالمرأة لم تكن في الجاهلية مهملة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها
كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار
الرسول صلى الله عليه وسلم في أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم
الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها
كما حرم زواج المَقْتِ ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشُّغَار ، وهو أن
يتزوج شخص "أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج
الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك
مما كانوا يبيحونه . وتلك كانت عادات عندهم ، وهي تلازم الأمم في عصور
بداوتها ، ولكن ينبغي أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهذرة الحقوق في الجاهلية ،
أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات في قوله تعالى : (وَإِذَا بُشِّرَ
أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به
أيمسكه على هُونٍ أم يدُسُّه في الترابِ أَلْأَسَاءُ مَا يَحْكُمُونَ) فأكبر الظن أن من
كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر
أو السبي ، إذ كان سباؤهن كثيراً في الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سُبَّةً ما بعدها
سبة .

المعيشة

لم يكن العرب يعيشون في الجاهلية معيشة واحدة ، فقد عُرِفَت الزراعة في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفي الطائف ووادي القرى . وعاش أهل مكة على التجارة ، إذ كانوا يحملون عُرُوضها وسلعها بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط . وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا وجنوبا في طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقا في طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسي من شرق مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خيبر ، ثم يتحرقون الصحراء في وادي الرُّمَّة ، ويظن أنه كان مجرى نهر في عصور ما قبل التاريخ ، ومنه يهبطون إلى الحيرة . وكان يصحبهم في هذه القوافل أدلاء بمحمتهم الضلال في مجاهل الصحراء ^(١) ، ومن أشهرهم قُرَات ابن حيان ، كما كان يصحبهم خفراء يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا النهب والسلب ^(٢) ، وقد يبلغون ثلاثمائة عدداً ، ومن أهم القبائل التي كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هُدَيل وفَهَم . وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندي وإفريقية الشرقية اللبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم نبي سليم الذهب . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية ^(٣) .

فكَّة في الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة ، وكان بها الكعبة أكبر معابد العرب حينئذ ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم فيها ، وتقيم لهم قریش الأعياد والأسواق كسوق عكاظ ^(٤) ، وكانت أكبر أسواقهم ، وكانوا يقيمونها في نجد

(١) المغازي للواقدي (طبع كلكتا) ص ٣٦ ،
 (٢) راجع في تحقيق عكاظ رسالة بمتوان موقع
 (٣) انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية .
 (٤) راجع في تحقيق عكاظ رسالة بمتوان موقع
 (٢) المحبر ص ٢٦٤ .

بالقرب من عرفات من منتصف ذى القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوق تجارة فحسب ، بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً ، وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قس بن ساعدة وهو يخطب في الناس . وقالوا إنه كانت تقام للتأبغة فيها قُبّةً ويفد عليه الشعراء يعرضون شعرهم ، فن أشاد به طار اسمه . وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتدفع الديات ، وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات . وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ، ويذكر في هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس . ومعنى ذلك كله أن عكاظاً كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، فيه يجتمعون وينظرون في خصوماتهم ، ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون . ومن أسواق قریش أيضاً ذو الحجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يميرون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دومة الجندل في شمالي نجد وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجْر بالمامة وسوق صحار ودبا بعمان وسوق المشقر بهجر وسوق الشجر وسوق حضرموت وسوق صنعاء وعدن ونجران . وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه (١) .

ولم يكن عرب نجد يفيدون من هذه الأسواق فقط البيع والشراء فإن قوافل عروضا القرشية وغيرها كانت تجعل لكثيرين منهم جعلاً نظير حمايتها ، وكانت تتخذ منهم الخفراء والأدلاء ، فتنتفحهم بأموالها . على أنه ينبغي أن لا نظن أن أهل مكة جميعاً كانوا أثرياء ، فقد كان بجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون ، وكان الفرق شاسعاً بين ثراء السيد الشريف وفقير المعوز البائس ، كما كان بها رقيق كثير .

وراء المجتمع المكي كان يعيش العرب في هامة ونجد وصحراء النفود وبوادي الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونها ويزدرونها ، فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التي

(١) انظر في أسواق الحاملية كتاب الحبر

ص ٢٦٢ ، واليعقوبي ١/٣١٢ وتاريخ

العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/٢٢٣ .

لأنَّ حَدهَ . ووقفت الصحراء تحميمهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم أسواراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية ، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة ، وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالحنادق والمهاوى ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التى كانت تلقى فى روعهم بالخيلالات والأوهام وما تمثل لهم من السعالى والجن والغيلان . وفى تضاعيف ذلك كان العرب يربص بعضهم ببعض ، إذ كانت حياتهم كما قدمنا حياة حربية دامية ، وكاد أن لا يكون هناك حى أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واثرة موتورة .

وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، وصور ذلك تصويراً طريفاً تأبط شراً فى كلمة له ، فقال (١) :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُؤْمِسُ بِغَيْرِهَا
وَيَسْبِقُ وَقَدْ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي
إِذَا خَاطَ عَيْنِيهِ كَرِي النُّومِ لَمْ يَزَلْ
وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيبَةً قَلْبِهِ

جَجِيشًا وَيَعْرُورِي ظَهْرًا مَهَالِكِ (٢)
بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ الْمَتَدَارِكِ (٣)
لَهُ كَالِيٌّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانِ فَاتِكِ (٤)
إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخْضَرَ بَاتِكِ (٥)

الشد : العدو ، المتدارك : المتلاحق .
(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، الكالى : الرقيب ، الشيحان : الجادق الأمر .
(٥) الربيعة : الرقيب والديديبان ، والسلة : الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ، والباتك : القاطع .

(١) المرزوقى ٩٥/١ وأمالى القالى ١٣٨/٢

وزهر الآداب ١٨/٢ .

(٢) يظل هنا : يفتو ، المومة : الفلاة ،

ججيشاً : منفرداً ، يعرورى : يركب .

(٣) وقد الريح : أولها ، يتحى : يقصد ،

منخرق : سريع ، يقصد العدو السريع ،

إِذَا هَزَّهٗ فِي عَظْمٍ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِدُ أَقْوَاهِ الْمَنَابِي الضُّوَاهِكِ (١)
 يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٢)

وتلك كانت حياة أكثرهم ، فهم يقطعون مفازة في النهار ، فإذا جنَّهم الليل وجدتهم في مفازة أخرى وقد ركبوا ظهور المهالك والمعاطب . لا يستصحون رقيقاً غالباً سوى أرجلهم التي تعودت العدو السريع . وهم دائماً مفزَّعون حتى في النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلبهم بل ظل يكاؤهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا غراراً ، فهي معلقة بسيوفهم التي لا تلبث أن تستقر في صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ . وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون ، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأنس ، فأنسهم في التفرد بالفلوات والقفار التي تمرسوا بها وعرفوا مسالكها ودروها معرفة تجعلهم لا يضلون قصدهم ، كما لا تضل الشمس قصدها ، بل يهتدون دائماً إليه .

وهذه الحياة القاسية المخوفة هي التي دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد والحرارة والشجاعة ، فإن القبيلة إن لم يكن لها حماة يذودون عنها تخطفها القبائل من حولها وفنيت فيها . وكان أهم حيوان أعانهم على احتمال هذه الحياة المجهدة البعير الذي يتحمل — مثلهم — مشاق الصحراء ولا يرهقه عطش ولا جوع ولا ما يحمله من أثقال . فهو رفيقهم المفضل الذي يوافقهم ، ولذلك طالما أشادوا به في شعرهم . وكثيراً ما يصفون معه الحيوانات التي تصادفهم من مثل أتن الوحش وحمارها وبقر الوحش وثورها والنعام والظباء . وكان فرسانهم ينفقون أيامهم على صهوات الجياد يرتادون بها مجاهل الصحراء ويلقون عليها الأعداء ، وقد يتخذونها لصيد الوحش على نحو ما يصور لنا ذلك امرؤ القيس في معلقته وزهير في لا ميته (٣) .

وكان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم . فكانوا يدربون الكلاب عليه ويضربونها تضرية ، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفي شعرهم قطع كثيرة تصف المعارك التي كانت تنشب بينها وبين الأتن وحمارها أو البقر وثورها .

(١) القرن : الكنف والنظير ، تهلت : (٢) أم النجوم : الشمس .

تلاوات وأشرفت . (٣) انظر ديوان زهير ص ١٢٤ وما بعدها .

وفي معلقة لبيد وصف بارع لأتن وحمارها ، ثم لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبلمهم ، ولما يشسوا أن يصيبوا منها مقتلاً أرسلوا في إثرها جوارح الكلاب فنشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كَسَابِ وسُخَامِ ، يقول :

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غُضْفًا دواجنَ قافلاً أعصامها^(١)
فلحِقْنَ واعتكرت لها مَدْرِيَّةٌ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وتامها^(٢)
لتذودهن وأيقنت إن لم تزد أن قد أحمَّ مع العتوف جِامُها^(٣)
فتقصَّدت منها كَسَابِ فضرَّجت بدمٍ وغودر في المكرِّ سُخَامُها^(٤)

ولأوس بن حجر قصيدة فائقة^(٥) وصف فيها حمار الوحش وصفاً بديعاً ، ثم وصف الصائد وصفاً مسهباً ، أرانا فيه ناموسه وكيف كان ينجبى للوحش على عين ، حتى إذا ورد الحمار ختله بسهمه ، غير أنه أخطأه .

ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، إنما كان هم فقرائهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قوماً بأنهم يعيشون على الصيد ، إذ يقول^(٦) :

أبني زيادٍ أنتم في قومكم ذنَّبٌ ونحن قُرُوعٌ أصل طيِّبٍ
نصِّلُ الخميسَ إلى الخميس وأنتم بالقَهَرِ بين مُرَبِّي ومُكَلِّبِ^(٧)
جيدٌ عن المعروف سمى أبِيهم طلبُ الوعولِ بوقُصَّةٍ وبأكلبِ^(٨)

وكما كانوا يصيدون الوعول أو الماعز الجبلي كانوا يصيدون الوحش ، ويتردد وصفهم له في أشعارهم تردداً واسعاً ، وهو تردد أتاح للجاحظ في حيوانه سيولا

(٥) انظر ديوانه بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع دار صادر بيروت) رقم ٣٠ .
(٦) حيوان ٣٠٩/٢ .
(٧) الخميس : الجيش . المربق : الصائد بالريقة وهي العروة في الجبل ، والمكلب : الصائد بالكلاب .
(٨) الوقصة : جمعة للسهام من آدم .

(١) الغضف : الكلاب المسترخية الآذان ، اللواجن : الضاريات وقيل الملمات ، وقافلاً : يابساً ، والأعصام : ثلاثه من آدم تجعل في أعناق الكلاب .
(٢) اعتكرت : رجعت وعطفت ، والمدرية القرون الحادة ، والسهمرية : الرماح .
(٣) الحمام : الموت ، وأحم : حان .
(٤) تقصدت : قتلت من تولم رماه فأقصده .

من هذه الأشعار .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعى للأغنام ، فتلك موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين في هذا الرزق ، فقد كان في كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً . وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شرّاً والشنفرى وأضرابهما . وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكفّ السماء عنهم غيثها وتجذب ديارهم وتُمحّل ، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء ، وقد أشادوا طويلاً بهذه الفضيلة كما أسلفنا ، وهى إشادة طبيعية فى هذه الصحراء المقفرة المهلكة ، التى يحفُّ بها المحل والجذب من كل جانب .

٣

المعارف

ليس بين أيدينا ما يدل على أن العرب الجنوبيين أوروأوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أنهم لم يخطوا فى طريق الحضارة خطى واسعة ، فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة لإرواء الأرض وإقامة المدن ، ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بيّنة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسى كان يعمهم النظام الإقطاعى ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمانات أو الدولة الحميرية تحولوا سريعاً إلى قبائل بدوية .

ومما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة ، فقد كان تجار مكة يدخلون فى مصر والشام وبلاد فارس ، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس ، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم ، وقد تنصروا ، وشاعت النصرانية فى قبائل الشام والعراق ، ونزل بينهم كثير من اليهود فى الحجاز واليمن . وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها ، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى فى حدود ضيقة وأنه وقف فى جمهوره عند تأثيرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم ، وفى السيرة

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب - بعد موقعة أحد - لغزو المدينة أشار سكران الفارسي على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحضر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم من حوله بأساليب الحرب^(١). وفي السيرة أيضاً أن الضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفينديار. فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال في مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله خلّفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلهم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدّثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين^(٢) .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون في طور السداجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا في نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهي مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداءة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمي دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغريون منذ القرن الماضي من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن رينان^(٣) ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذي أحدث الحضارة ، وكأنهم يريدون أن يبرروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهي نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التي تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبة المتعادلة . ويدخل في هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٢٣٥/٣ . (٢) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد
(٢) السيرة النبوية ٣٢١،١ . على ١٦٨/١ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم^(١) ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم في الجاهلية ، أما في الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا في الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم في عصوره الوسيطة . ويقول أوليري : إن العربي مادي ، ضيق الخيال والعواطف^(٢) ، وكأنه يتجاهل أدبهم وما يزرخ به من أخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسي لا دليل عليه ، وكأنما قادتة إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآري على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب في الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون في مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا في ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون في هذا الباب من أبواب الرواية .

وبلى هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : « وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاح الأماليس^(٣) - حيث لا أمانة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة - مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه^(٤) ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة اضطرتته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فاردأ^(٥) ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً . وسئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقرفاً على كل ليلة . ووصف أعرابي لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عبادى كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابي

(٣) الصحاح : الأرض المستوية ،
الأماليس : التي ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

(٥) فاردأ : مفرداً .

(١) المقلمة (طبع المطبعة البهية) ص
٢٥٢ وفي مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة
الأولى) ص ٣٩ نقلاً عن كتاب أوليري :

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجداع^(١) بيته^(٢) ؟ ! .
وهي معرفة أدهم إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ :
« كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها
على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في
أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم^(٣) » .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكي
بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم في تضاعيف ذلك كثير
من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من
الجنون وأن روحاً شريفة تحلّ في المريض ، وكانوا يتداونون منها بالعزائم والرقي .
فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنياً على قواعد عقلية ، وحقاً ما يقول ابن خلدون :
« للبادية . . طب بينونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ،
متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على
قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان
فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كعدة وغيره^(٤) » . ومن أهم معارفهم الطبية
معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيول والإبل ، فقد عرفوا شياتها وما يزيها
ويعيها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوون به .
وقد تحدثوا طويلاً عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ
في حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما أعتد على ما عند الأعراب ،
وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية^(٥) ولا من جهة
التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبباً أو بهيمة
أو مشترك الخلق فإنما هي مبثوثة في بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط
أو غيضة أو رملة أو رأس جبل ، وهي في منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى
بينها وأقاموا معها . . وربما بل كثيراً ما يبتتلون بالناناب والحلب وباللدغ واللسع
والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل

ص ٤٥ .

(١) الأجداع : سيقان النخل تجعل مقفلاً للخيمة .

(٢) المقدمة ص ٣٤٦ .

(٢) الحيوان ٦ / ٣٠ .

(٥) الفلاية : النظر العلمى .

(٣) طبقات الأمم لصاعد (طبع بيروت)

وحال الحنجى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهرب ، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء^(١) . وكانت حُلم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهى تتبع الأثر فى الأرض والرمل ، وطم فى ذلك أقاصيص طويلة ، وطبيعى أن تنمو عندهم القيافة ليعتقبوا من يضل منهم فى الصحراء ، أو ليعتقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم فى غيبتهم عن أحيائهم .

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسس على قاعدة ولا على نظرية ، فهم فى جمهورهم بدو ، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلى مؤسس على أسلوب علمى . ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور ، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لهيب ، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة ، وطم فى الطيرة أحاديث كثيرة ، قال الجاحظ : « وأصل التطير من الطير إذا مرَّ بارحاً (ميامناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى ويتنف ، حتى صاروا إذا عابنوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبر زجروا عند ذلك وتطيروا . . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك فى كل شيء . . وللطيرة سميت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكسوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بجاتم . والغراب أكثر من جميع ما يتطير به فى باب الشؤم^(٢) . وإيمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح ، وهى سهام ، كانوا يكتبون عليها عبارات يصدرن عنها مثل الأمر والنهى والمتر بص ، وهى غير أزلام القمار وقداحه .

وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلى عندهم كان ضعيفاً ، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، وهذا طبيعى فقد كانوا فى طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول ، وكانوا لا يتعمقون فى بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو مخاطفاً . يقفون عند الجزئيات ، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التى يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . وحقاً شاعت عندهم الحكمة ، ولكن لا بمعناها

(٢) الحيوان ٣/٢٨٨ وما بعدها .

(١) الحيوان ٢٩٤٦ .

الذى عُرِفَتْ به في العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التي تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « في بيته يؤتى الحكم » وهو من يحكم بين الناس في منافعهم ومفاسداتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكم هو العاقل المحرب الذي يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهي تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقوفه على طرقها المستقيمة التي تهدي سبيل الرشاد .

وكرت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة في العصر العباسي ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكري و « مجمع الأمثال » للبيداني . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجري على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها في حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدور والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والتكراء (الفطنة) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع . . . وأوى بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكرم بن صيني وربيعه بن حذار وهرم بن قُطَيْبَة وعامر بن الظَّرب وليد بن ربيعة»^(١) . وللقمان سورة في القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها في صحيفة تدعى مجلة لقمان ، ففي أخبار سُويْد بن الصامت أنه «قدم مكة حاجباً أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله : وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علي ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل منه : قرآن أنزله الله عليّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لراه مات مسلماً ، وكان قتلُهُ يوم بُعِثَ^(٢) » .

(٢) أسد الغابة ٢/٣٧٨ .

(١) البيان والتبيين (طبعة عبد السلام حارون) .

وتتملئ كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلية من حكم، مثل قول أكم: «مقتل الرجل بين فكَّيه» وقول عامر بن الظرب: «رب زارع لنفسه حاصد سواه». وفي الشعر الجاهلي كثير من هذه الحكم، وهي تُدكرُ في ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة في معلقته:

أرى العَيْشَ كَنْزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ وما تَنْقُصُ الأيامُ والدَّهْرُ يَنْقُدُ
ومن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى ولييد وعبيد بن الأبرص. وفي خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله:

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأَمْسِ قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمٍ
ومن لا يصانعُ في أمورٍ كثيرةٍ يضرُّسُ بأنيابٍ ويوطأُ بمنمٍ^(١)
ومن لا يندُدُ عن حوضه بسلاحه يهدمُ ومن لا يظلمُ الناسَ يُظلمُ
ومن هابَ أسبابَ المنية يلقها ولو رام أسبابَ السماءِ بسلمٍ
ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلمُ

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسُننها التي وصفناها فيما مر من حديثنا، وهي تجرى مجرى التعاليم التي ينبغي أن يأخذوا بها في حياتهم. وقد وقف شعراؤهم كثيراً عند فكرة الحياة والموت والدهر وما يرمى به الناس: وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه، فلا ينفع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة، وكثيراً ما يذكرون مَنْ سبقهم إليه متخذين من ذلك عظمهم، يقول قُيس بن ساعدة^(٢):

في الداهيين الأوراء ين من الشعوب لنا بصائرٍ
لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادرُ
ورأيت قومي نحوها تسعى الأصاغرُ والأكابرُ
لا يُرجعن قومي إلَّا يَّ ولا من الباقين غابرُ

(٢) حسانة البحرى ص ٩٩ وانظر البيان والتبيين ٣٠٩/١.

(١) المصانعة: الترفق والمداراة، يضرس: يعض، المنم: خف البعير.

أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القومُ صائرُ

وكثيراً ما يتسعون بهذه النظرة ، فيخرجون عن إفتاء الزمان لعشائهم وقبائلهم إلى إفتائه للدول والملوك من حولهم ، فالليالي والدمر والأزمان في كل وقت تهدم جداراً كبيراً إما من ملك أو دولة ، وحتى الأنبياء وسليمان الذي سُخِّرَتْ له الجن تلفتُ نفوسهم جميعاً وهلكوا كما هلك من قبلهم ، ويهلك من بعدهم^(١) .
ودائماً يكررون أن الدهر بالمرصاد وأنه لا يؤمنُ في صباحه ومساءه ، ولم في عتابه على فجيعته لهم بالأهل محاورات طريفة ، كقول زهير إن صح أنه له^(٢) :

يا من لأقوامٍ فُجِعْتُ بهم كانوا ملوك العُرب والعُجم
استأثر الدهرُ الغداةَ بهم والدهرُ يرميني ولا أرمي
لو كان لي قرناً أناضلُهُ ما طاش عند حَفِيظَةٍ سهمي^(٣)
أو كان يعطى النُصفَ قلت له أحرزتَ قسمك فألهُ عن قسمي^(٤)
يا دهر قد أكثرتَ فجعَّتنا بسرأتنا ووقرتَ في العظم^(٥)
وسلبتنا ما لستَ مُعقبنا يا دهر ما أنصفتَ في الحكم

وعلى هذه الشاكلة كان لهم ضرب من التفكير في حقائق الحياة والموت ، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعاتهم ومعاشهم . وليس في ذلك كله فلسفة ، ولكن فيه البساطة والقطرة وما يدل على حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .

(١) حماسة البحري ص ٨٣ وانظر
المفضليات ص ٢١٧ .
(٢) حماسة البحري ص ١٠٥ وانظر
الديوان (طبعة دار الكتب) ص ٣٨٥ .
(٣) الحفيظة : الغضب .
(٤) النصف : العدل .
(٥) السراة : السادة ، وقرت : صدعت .

الدين^(١)

كانت كثرة العرب في الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبت في الكواكب ومظاهر الطبيعة ، وفي أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبي عهد بالطوطمية (Totemism) إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذة حاميتها والمدافع عنها من مثل كلب وثور وعلبة . وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والحماطات والطيور والحيوان ، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنهم كانوا موحدين^(٢) ، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء في القرآن الكريم، وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزاً لآلهتهم، ويفيض كتاب الأصنام لابن الكلبي في بيان هذا الجانب . ويظهر أن عبادة النجوم والكواكب دخلت عندهم من قديم، وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين ، كما جاءتهم من لدن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس، كما مر بنا ، هو القمر أو ودّ ، والشمس أو اللات ، والزهرة أو العزى . ونراهم يقصدون النار ، ويظهر ذلك في إيقادهم لها عند أحلافهم ، واستمطارهم السماء وتقديم القرابين إليها^(٣) ويقال إن المحوسية كانت متفشية في تميم وعمان والبحرين وبعض القبائل العربية^(٤) ، والمحوس كما نعرف تشبوية يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً ، وقد صوروها أو نحوتها رمزاً لآلهتهم ، وقد يرون في بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم ، ففي أخبارهم أن العزى كانت لغطفان ، وهي شجرة بوادي نخلة شرقي مكة ، وقد قطعها خالد بن الوليد ، وهو يقول :

الإسلام لمحمد عبد المعيد خان وتاريخ العرب القديم ترجمة فؤاد حسنين على .
(٢) راجع جواد على ٢٠/٥ وما بعدها و ٥٣/٥ وما بعدها حيث يذكر رأي رينان وآراء غيره من المستشرقين .
(٣) انظر الحيوان ٤/٦١ وما بعدها .
(٤) جواد على ٢٨٤/٦ وما بعدها .

(١) انظر في ديانات الجاهليين الجزوين الخامس والسادس من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على
وكتاب روبرتسن سميث :
Lectures on the Religion of the Semites.
وبقايا الوثنية العربية لوهوزن - Reste Arabis
chen Heidentums . والأساطير العربية قبل

يا عَزَّ كُفْرانِكَ لا مُسَبِّحانِكَ إني رأيت الله قد أهانك^(١)

ويشير القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول جل وعز : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ويقول سبحانه وتعالى : (ولا تذرنَّ وَدًّا ولا سُوَاعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونَسْرًا) . وكانت عبادة اللات أو الشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفي الحجاز ، وكان معبدها في الطائف . ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء بنَتْ عليه ثقيف بيتاً وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه^(٢) ، ويتردد في أسمائهم وهب اللات وعبد شمس ، وعبد العزى ومثلها مثل اللات في تعظيم قريش والعرب لها وتقديسها . وكانت مائة صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان في اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهي إلهة القضاء والقدر ، وكانت معظمة عند هذيل وخزاعة والعرب جميعاً وخاصة الأوس والخزرج إذ « كانوا يحججون إلى مكة ، ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رعوسهم . فإذا نفرُوا أتوا مائة وحلقوا رعوسهم عندها ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك »^(٣) . وودّ كما قدمنا من الآلهة الجنوبية ، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثلاث الأب والأم والابن ، وكان صنمه بدومة الجندل ، وظل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام^(٤) . وكان سُواع صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر^(٥) ، وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك ، ويعوث وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن^(٦) . وكان يعوق صنم هَمْدان وخولان وما والاها من القبائل^(٧) . وفي اسمه واسم يعوث ما يشير إلى أرواح حافظة . فعنى يعوث يعين ، ومعنى يعوق يحفظ

(٥) الأصنام ص ٥٧ وجميع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٣٦٤/١٠ ومادة رباط ، حيث أقاموه ، في معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت .
(٦) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والمخبر ص ٣١٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠ ومعجم البلدان في يعوث .
(٧) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠ ويعوق في معجم البلدان .

(١) الأصنام لابن الكلبي ص ١٧ وما بعدها ومادة العزى في معجم البلدان .
(٢) الأصنام ص ١٦ والمخبر لابن حبيب ص ٣١٥ ومعجم البلدان في اللات .
(٣) الأصنام ص ١٤ وأخبار مكة للأزرقي (طبعة المطبعة المأجدية) ٧٣/١ ومعجم البلدان في مائة والمخبر ص ٣١٦ .
(٤) الأصنام ص ٥٥ وما بعدها والمخبر ص ٣١٦ ومعجم البلدان في « ود » .

ويمنع . وكان نسر معبود حمير^(١) ، وانتشرت عبادته في الشمال ، ويشير اسمه في وضوح إلى الطائر المعروف باسمه ، وفي الطبرسي : « كان ودّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير »^(٢) .

وراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم أصنامٌ كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية ، ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً^(٣) ، وكان أعظمها عند القرشيين هُبَل : « وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، وجعلتها له قريش من ذهب : وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة قِداح ، مكتوب في أحدها : « صريح » والآخر : « مُلصَق » . فإذا شكّدوا في مولود أهدوا إليه هدية ، ثم ضربوا بالقِداح (السهام) فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه ، وإن خرج (ملصق) دفعوه . وقدحٌ على الميت ، وقدح على الزواج .. وإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقِداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .. وعنده ضرب عبد المطلب بالقِداح على ابنه عبد الله »^(٤) . وباسمه كان ينادى أبو سفيان في معركة أحد ويصيح : اعْلُ هُبَل .

ومن أصنام قريش المشهورة إساف ونائلة ، ويقال إنهما كانا شخصين أتيا أعمالاً سيئة فُسِخا حجرتين ، وعبدتهما الناس ، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة ، وثانيهما في موضع ززم ، ويقال إن إسافا كان بإزاء الحجر الأسود وكانت نائلة بإزاء الركن اليماني^(٥) . ومن أصنامهم مناف وبه سمي عبد مناف .

ومن الأصنام المشهورة رضا وتيسم وشمس لقيم وذوالخليفة وهو صنم خشبهم وبجيلة وأزد السراة ، ويقال إنه كان مرورة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكان موضعه بتبالة وله بيت يججون إليه^(٦) . وذو الشرى وكان له معبد ضخم في

(١) الأصنام ص ٥٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠
 ومادة نسر في معجم البلدان واللسان وتاج العروس .
 (٢) الطبرسي ٣٦٤/١٠ .
 (٣) انظر الجزء الثاني من ابن الأثير في ذكر فتح مكة .
 (٤) الأصنام ص ٢٨ والطبرسي ٣٦٤/١٠ .
 (٥) الأصنام ص ٢٩ والمخبر ص ٣١٨ والطبرسي ٣٦٤/١٠ .
 (٦) الأصنام ص ٣٤ ، ٤٧ والأزرق ٢٥٦/١ والمخبر ص ٣١٧ .

سَلْع (بطرا) ^(١) ويظهر أن عبادته قديمة ، وهو يقابل الإله ديونيسوس عند اليونان إله الخصب والخمر .

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها إلى آلهتهم ، وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعدونها مقرأً لبعض الأرواح . وفي القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . والأزلام هي القداح كما مر بنا .

وفرق بين الصنم والوثن ، فالصنم يكون غالباً تمثالاً ، أما الوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم بالوثن ، يقول ابن الكلبي : « واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسنت ثم طاف به كطوافه بالبيت .. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذها ربياً وجعل ثلاثة أثنافٍ لبقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك . وكانوا يتحرون ويدبحون عند كلها ويتقربون إليها » ^(٢) .

وهذه البيوت التي اتخذوها لأصنامهم كان منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذي الخليفة وهي الكعبة اليمانية وكعبة الطائف وهي بيت صنمهم اللات ، وأشهر كعباتهم مكة حارسة الوثنية في الجاهلية ، وهي التي وصلتنا عنها تفاصيل كثيرة توضح ما كانوا يتخذون في حجهم إليها من شعائر . وكانوا يطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة ، ويظنُّ أنه كان على كل منهما صنم ، ويقال إنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة . وكانوا يقفون بعرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم منى . وكانت إفاضتهم في عرفة عند غروب الشمس ، أما في المزدلفة فعند شروقها ، وكان يتولَّى الإجازة في الأولى بعض التيمييين . وفي الكعبة الحجر الأسود وكانوا يتبركون به ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها . ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون في طوافهم ، فمنهم من يطوف عرباناً وهم الحلة ^(٣) ، ومنهم من يطوف في ثيابه وهم الحمس ^(٤) من قریش

(١) الأصنام ص ٣٧ وقاج العروس
واللسان في مادة الشرى .

(٢) الحجر ص ١٨٠ وما بعدها .

(٣) الحجر ص ١٧٩ والأزرق ١/١١٤ .

(٤) الأصنام ص ٣٣ .

وكنانة وخزاعة، ويصور لنا الأزرق طواف العريان بقوله : « يبدأ بإساف فيستلمه (يعتقه) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن (حيث الحجر أو الحطيم) ثم استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ، فيلبسها ، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً^(١) . » .
وقد أبطل الإسلام العري في الطواف ، كما أبطل كثيراً من تقاليد الحُمس^(٢) .
وكان من تقاليدهم رمي الجمرات في منى وتقديم العتائر أو الضحايا وذبحها عند الأنصاب وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات ، وفي القرآن الكريم : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . وتدل الآية الكريمة على أنهم كانوا يجعلون لله نصيباً ، ثم يعودون فيجعلونه لأهلهم الصغرى أو لأصنامهم . وذكر القرآن الكريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأولاهما الناقة أو الشاة يحرمون لبنها والانتفاع بها ، والثانية مايسب (يترك) نذراً للآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلاً ، والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكراً ذُبح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى استحويه ، وإن ولدت توأمًا : ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وحرّموا ذبحه على أنفسهم . أما الحام فالبعير ينتج عشرة أبطن من صلبه ، ويقولون : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة في نذورهم وقرابينهم ، وقد هدمها الإسلام هدماً ، وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة في الحج نفسه لعل أهمها التلبية ، يقول ابن حبيب : « وكانوا يلبّون إلا أن بعضهم كان يشرك في تلبيته ، وكان نسك قريش لإساف ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . وكان لكل قبيلة بعد تلبية ، فكانت تلبية من نسك للغزي : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ما أحبنا إليك . وكانت تلبية من نسك لللات : لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى بيبتنا بنيتة ، ليس بمهجور ولا يلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية . . . وكانت تلبية من نسك لآود :

(٢) الأزرق ١١٦/١ وما بعدها .

(١) الأزرق ١١٤/١ .

ليبك اللهم لبيك ، لبيك معذرة إليك . وكانت تلبية من نسك لذى الخَلَصَة :
ليبك اللهم لبيك ، لبيك بما هو أحب إليك . . . (١) .

وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سموها الأشهر الحرم ، وهي رجب
وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وكان الحج إلى مكة في ثالثها ، وفي اسمه ما يدل
على أن الحج المعظم للكعبة القرشية كان فيه . وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم
فلا يستباح دم ، ولا تنشب حروب ، إلا ما كان من حرب الفجار ، وعُدَّت
انتهاكاً عظيماً لحرمات البيت . وكأنما كانت هذه الأشهر هدنة لهم ، ومُعِيناً لبعدهم
عن الأماكن المقدسة في الوصول إليها دون أن تُمَسَّ نذورهم . وكانوا فيها يتجرون
ويعبرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ .

وكانت هناك جماعات تقوم على سِدانة بيوتهم المقدسة ، ويسمونها الحجابة ،
وكانت في مكة لبني عبد الدار ، وبجانب هؤلاء السِدانة كهان كانوا يدعون معرفة
الغيب وأنه سُخِّرَ لهم طائف من الجن يسرق لهم السمع فيعرفون ما كُتِبَ للناس في
ألواح الغد . ومن عُرِفَ بذلك سَطِيحُ الذئبي وشِقِّ بن مصعب الأنماري وعوف بن
ربيعة الأسدي وسلمة الخزاعي وسواد بن قارب الدوسمي وعُزَي سلمة (٢) . ونجد
بجانب الكهنة كاهنات مثل الشعثاء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة
ذى الخَلَصَة (٣) . وفي أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق بيوت
الأصنام بغايا ، وكانوا سبباً في ثورة بنحصر موت قضى عليها أمية بن أبي المهاجر
لعهد أبي بكر الصديق (٤) .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح
وأنها تحل في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، وكان منها أرواح خيرة ،
هي الملائكة وأرواح شريرة هي الشياطين . وفي القرآن الكريم : (وجعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن إناناً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) . فكانوا

بولاق) ٥/١ .

(٣) انظر مجمع الأمثال للميداني ٩١/١ ،

٢٢٣/١ ، ٥٤/٢ .

(٤) المحبر ص ١٨٤ .

(١) المحبر ص ٣١١ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٥/١

والكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ٣٠١/١

وأغاني (طبعة دار الكتب) ٨٤/٩ وطبعة

السامي ٧٠/١٥ والسيرة الحلبية (طبع

يزعمون أنها بنات الله ، وكانوا يعبدونها - كأصنامهم - من شفعايم عند الله وشركائه . وحكى القرآن اعتقادهم في ذلك إذ يقول جلّ وعز : (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) . وفى القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسباً ، يقول جلّ وعز : (وجعوا لله شركاء الجن ، وخلقتمهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) . وفى أساطيرهم أو قل فى معتقداتهم أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فهلك . يقول الجاحظ : وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلّة العطش ضربوا الثور ليتمتع الماء . لأن البقر تتبعه^(١) ، فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن - وإيحاءهم . ولهم فيها كثير من الأساطير . عرض لها الجاحظ فى الجزء السادس من حيوانه . فتحدث عن مواطنها فى رأيهم وأنها تركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصور فى صور كثيرة ، وتتوالد مع الناس ، وقد تسهويهم وتقتلهم أو تخبلهم . ويُسَمَّع ليلاً عزيفهم وهتافهم . ومنهم من يألف الكهكاه ويخدمهم وهو الرثي . ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شيقاً ، ولكل شاعر شيطانه الذى ينفث فيه الشعر . ومنهم السعلاة . والغول وهى من سباعهم . ويزعم تأبط شراً فى شعر يضاف إليه أنه لقيها فى ليلة مظلمة وهو يسعى فى فلاة ، فنازها وما زال بها حتى قتلها وهولا يعرفها ، يقول^(٢) - إن صح أنه قائله - :

فلم أنفك متكئاً عليها لأنظر مصباحاً ماذا أتانى
إذا عينان فى رأيس قبيح كراس الهير مشقوق اللسان
وساقا مُخدجٍ وشواة كلبٍ وثوبٌ من عباءٍ أو شينان^(٣)

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلهاً واحداً قال جلّ وعز :
(وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً
واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آلتكم إن

(١) انظر الحيوان ١٨/١ وما بعدها . (٢) مخدج : ناقص الخلق ، الشواة :

(٣) مخدج : ناقص الخلق ، الشواة :

الأطراف ، الشنان : جلد القرية البالى .

(٢) الأغاني (سأسى) ٢١٢/١٨ .

هذا الشيء يُراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) . وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور يقول جل ذكره : (وقالوا إن هـى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وقال : (وقالوا ما هـى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وقال : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحنفاء ، وكانت تشك في الدين الوثنى القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها في الحياة . يقول ابن إسحق : « اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينسحرون له ويعكفون عنده ويديرون (يطوفون) به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنم بعضهم على بعض قالوا أجل ، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعبيد الله ابن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . ففترقوا في البلدان يلتمسون الخنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية . . . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم . . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر . . . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميثة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان . . . وقال أعبد رب إبراهيم ^(١) ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين المقدمين .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدل على ذلك اشتقاقها ، ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها ، فقد كانوا منتشرين في القبائل ، إذ تعدت كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادي وأبا ذر الغفارى وسيرمة

ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة وعامر بن الظرب العُدَوَانِي وخالد بن سنان العيسبي وأمّية بن أبي الصَّلْتِ الثَّقَفِي وعمير بن جندب الجُهَنِي . ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام (١) مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم التميمي وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة . ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكاً في حياتهم المدنية . وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ، فما انبلجت أضواء الإسلام ، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجا .

٥

اليهودية والنصرانية

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز (٢) ، والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على أثر اصطدامهم بالقيصر طيطوس (Titus) وهدمه للهيكل سنة ٧٠ للميلاد ، وكذلك اصطدام القيصر هدریان بهم سنة ١٣٢ ففي هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز ، وسقط غير قليل منهم إلى اليمن . وقد تكون هجراتهم أقدم من ذلك ، ولكن ليس بين أيدينا نصوص وثيقة ، نعرف منها بالضبط مراحل وفودهم على الجزيرة سواء في الحجاز أو اليمن ، وحتى هجراتهم في أيام طيطوس وهدريان غير واضحة تماما . وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذونُراس ، وأن يدخلوه في دينهم ، وقد دفعوه دفعا إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم ، وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْضُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) .

السادس وكذلك كتاب مرجليوث :

The Relation between Arabs and
Israelites Prior to the Rise of Islam.

(١) المحبر ص ٢٣٧ .

(٢) راجع في اليهودية بجزيرة العرب كتاب
تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي الجزء

وربما كان السبب الحقيقي في استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية في بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة ، فيستولوا عليها بدون مقاومة . على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم ، فأزالوا دولة ذى نُوَاس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عاماً ، حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس .

ويظهر أن هذه الفترة التي قضاها الأحباش النصارى هناك كانت سبباً في تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم في البلاد . ولكن ظلت بقايا هناك ، دخل كثيرون منها في الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبّه ، ولهما في الإسرائيليات التي شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير .

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز : يثرب وخبير ووادى القرى وتيماء ، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النضير وبنو قريظة وبنو قيسنق وبنو بهدل ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج كما قدمنا ، وفرضت القبيلتان عليهم سيادتهما . وكانوا يشتغلون بالزراعة والصياغة والحداة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة ، وكانوا يعمدون عمداً إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين ، فاشتبكنا في حروب دامية ، حتى جمعهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصبح أفرادها بنعمة الله إخواناً متحابين . وناهض اليهود الرسول ، فكانوا يثيرون معه مناقشات ومجادلات صورها القرآن الكريم ، وذهبوا يحاولون الوقعة بين المسلمين ، ويؤلبون عليهم قريشاً وغير قريش ، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة . وفي السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم في دار ندوة لهم تسمى المدارس وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمشنة والزبور (مزامير داود) بلغتهم القديمة العبرية ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ، ونظم فيها بعضهم شعراً عربياً .

وعلى نحو ما تعرب يهود يثرب تعرب يهود خبير ووادى القرى وفدك وتيماء ، واشتهر بينهم غير شاعر كالسدوأل بن عادياء ، وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء ، فعاربهم الرسول ، وانتصر عليهم ، ولم يلبث عمر أن أمر بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . وليس بين أيدينا ما يدل على دلالة على أنهم خلفوا آثاراً واضحة في الجاهليين ،

فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم وعن دينهم ، لا يتأثرون به في قليل ولا كثير ، وإن حاول بعض المستشرقين إثبات هذا التأثير (١) .

وقد انتشرت النصرانية في اليمن وشمال الجزيرة الغربي والشرقي (٢) ، ويُظنُّ أن انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادي ، وكان من أهم الأسباب في انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة ، ولعلمهم أرادوا بذلك النفوذ إلى فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم . ولا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نرى النصرانية منتشرة في نجران وغيرها ويظهر أن نجران كانت أهم مواطنها ، وقد نكبهم ذو نواس نكبته المشهورة التي أشرنا إليها فيما أسلفنا ، ودخل الأحباش بقيادة أبرهة ، فُدِّعَت النصرانية واعتنقها كثيرون، وبُنِيَتْ لها كنائس في غير مدينة . ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران، وفي السيرة النبوية أن وفدًا منها قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فيه العاقب والسيد ، وهما الرئيسان السياسيان كما كان فيه أسقفهم وحبَّسَهم أبو حازمة بن علقمة ، وكان « قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس » (٣) . ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن ، وأهم بزيتها وزخرفتها ، أشهرها القليس في صنعاء ، وهي تعريب لكلمة Ecclesia اليونانية بمعنى الكنيسة ، ويقال إنه « نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر . . وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزَّع والحجارة المنقوشة بالذهب . . ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » (٤) . ويظهر أنه استعان في بنائها بأنقاض من قصور ملوكهم السابقين ومعابدهم القديمة ، وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا يزال قائمًا إلى اليوم .

وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجُدَام وكلب وقضاة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفيين ، وهم القائلون بأن

(٣) انظر وقد نجران في سيرة ابن هشام . ٢٢٢/٢ .

(٤) مادة القليس في معجم البلدان لياقوت وتفسير الطبري ١٩٣/٣٠ .

(١) انظر جواد على ٩١/٦ وما بعدها وكذلك ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر في النصرانية بجزيرة العرب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، الجزء السادس ، والنصرانية وأدائها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً . ولذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة ،
وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعي المولود حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد ، وقد
دخل في مذهبه - كما قد منا - الغساسنة ومن والاهم من عرب الشام .
ونفذت النصرانية إلى عرب العراق أيضاً إلى تغلب وإباد وبكر ، وتغلغلت
في الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها بها العباديون ، وأغلب الظن
أنهم سمو بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين ، فهم عباد الله . ولم يكونوا يعاقبة
كعرب الشام ، وإنما كانوا غالباً نساطرة نسبة إلى نسطوريوس (Nestorius)
المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت
وأقنوم اللاهوت . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر في التنصر ، ويقال إن هنذا
أم عمرو بن المنذر ابنت ديراً هناك ويقال بل بتمته هشد بنت المنذر ، وقد دخل
أخوها النعمان في النصرانية ، وهو آخر المناذرة .

وكان الرقيق الحبشي الذي تزخر به مكة نصرانياً ، ويظن أنه كان بها جالية
من الروم النصراني^(١) ، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين
التمر^(٢) وإنه كان بها جوار روميات^(٣) ، ويقال إن شماسا زار مكة في الجاهلية^(٤) ،
وكان يعيش في مَرَّ الظهران راهب مسيحي^(٥) . ويزعم اليعقوبي أن قوما تنصروا
من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبي لُب وعثمان بن الحويرث
الأسدي^(٦) . والمظنون أنه كان في المدينة بعض النصراني ، وإليهم يشير حسان
في رثائه للرسول صلوات الله عليه - إن صح أنه له - إذ يقول^(٧) :

فرحت نصراني يشرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد
وكانت النصرانية منتشرة في طيء ودومة الجندل . وهي على هذا النحو كانت
تختلف عن اليهودية التي لم تدع في القبائل . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور
من تنصروا من العرب قبل الإسلام ، ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقاً ،

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad (٤) ابن حشام ٣٤٩/١ وأسد الغابة ٣/٣٧٥

(٥) السيرة الحلبية ١/٧٥ . p. 184.

(٢) أسباب النزول للواحد ص ٢١٢ .

(٣) أسد الغابة ١/٣٨٧ ، ٤٤/٢٣٢ ،

(٦) تاريخ اليعقوبي ١/٢٩٨ .

(٧) ديوان حسان (طبعة هرفلد)

فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأسافنة والصوامع ، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا الدين الجديد ، وظلوا يخالطونه بغير قليل من وثنيّتهم ، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العبادي^(١) :

سعى الأعداء لا يألون شراً على وربّ مكة والصليب

فهو يجمع في قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب ، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى ، فهم مسيحيون وثنيون في الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة في النصرانية .

والحق أن نصارى العرب في الجاهلية إنما عرفوا ظاهراً من دينهم ، وقلما عرفوا حدوده ، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه ، فنجد امرئ القيس وقوله^(٢) :

بضياء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبّال المفتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم ، يقول الأعشى^(٣) :

كدمية صور محرابها بمذهب ذي مرمر مائر

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقدرعها في أواخر الليل ، يقول المرقش الأكبر في بعض شعره^(٤) :

وتسمع تزقاء من اليوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس^(٥)

وعرض النابغة الذبياني في مديحه للغساسنة لتدينهم ، ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السباب إذ يقول فيهم^(٦) :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباب

(٤) المفضليات (طبعة دار المعارف)

ص ٢٢٥ .

(٥) التزقاء : الصياح . والهدو : أوائل الليل .

(٦) مختار الشعر الجاهلي للسقا ص ١٦٢ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١١/٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبعة دار

المعارف) ص ٢٤ . و والسليط : الزيت .

(٣) الديوان (طبعة جابر القصيدة رقم ١٨ .

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذي كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل
ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول (١) :

عليه كمصباح العزيز يُشبهه لِفِصْحٍ ويحشوه الذُّبَالُ المِفْتَلًا

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء ، من مثل داود ، وكان يشتهر عندهم
بنسجه للدروع المتينة القوية، ومن تَمَّ يقول سلامة بن جندل في وصف بعض
الدروع (٢) :

مُدَاخَلَةٌ من نسج داود شَكَّهَا كحَبِّ الجَنَّا من أبلُمٍ متفَلِقٍ (٣)

وقد يتحدثون عن ملكة في صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى
الدهر على الناس فلا يبقى ولا يلر.

ويكثر في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت وعدى بن زيد القصصُ عن
الأنبياء وسيرهم قصصاً نظن ظناً أنه موضوع . وهو إن قُبِلَ من عدى النصراني فإنه
لا يقبل من الأعشى ، وكان وثنيا . وتبدو في شعر بعض الشعراء نزعة إلى
التفكير في الحياة والموت على نحو ما أسلفنا في غير هذا الموضع ، كما يبدو في شعر
نفر منهم إيمان بالله ، كقول عبید بن الأبرص في معلقته — إن صح أنه له — :

من يسأل الناس يعرِّمونهُ وسائلُ الله لا يخيبُ

ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة
في شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التي تنفق معها في الوزن (٤) . وفي معلقة
زهير :

فلا تكتننَّ اللهُ ما في نفوسكم ليخفي ومهما يُكْتَم اللهُ يعلم
يوخَّرُ فيوضعُ في كتاب فيُدْخَرُ ليوم الحساب أو يعجل فيُنْقَمَ

(٣) مداخلة: بحكمة النج، شكها: أحكمها،

الأبلم : بقلة لها قرون بها حب يابس .

(٤) جواد على ٣٠٥/٦ .

(١) ديوان أوس ص ٨٤ .

(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف)

ص ١٥٠ .

فإنه يعلم خائنة الصدور وما تخفى ، ويعاقب كل إنسان على ما قدمت يدها عاجلاً أو آجلاً في يوم الحساب ، وإذا صح البيتان لزهير كان ذلك دليلاً على أنه ممن تحنفوا قبل الإسلام .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية في الجزيرة قد أثر في الشعراء آثاراً مختلفة لا في شعرائها الخاصين بل أيضاً في بعض الشعراء الوثنيين ، وكان من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين ، وتسربُ فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين .